

طواعين غيرت مسار التاريخ الإسلامي ☐☐ أوبئة أسقطت دولاً ومهدت لفتوحات وحصدت عشرات الآلاف من الضحايا



الخميس 4 يونيو 2026 08:00 م

شهد التاريخ الإسلامي عبر قرونه المتعاقبة موجات متكررة من الطواعين والأوبئة التي لم تكن مجرد كوارث صحية عابرة، بل تحولت في كثير من الأحيان إلى عوامل حاسمة أعادت رسم الخرائط السياسية والعسكرية والاقتصادية، وأسهمت في صعود دول وانهايار أخرى، وغيرت ملامح المجتمعات والمدن الكبرى على امتداد العالم الإسلامي ☐

فبينما ينظر المؤرخون عادة إلى الحروب والثورات والصراعات السياسية باعتبارها المحركات الأساسية لمسار التاريخ، تكشف وقائع الطواعين والأوبئة عن قوة أخرى خفية كان لها تأثير بالغ العمق في صناعة الأحداث الكبرى ☐

فقد لعبت الأوبئة أدوارًا مفصلية في تسهيل الفتوحات الإسلامية الأولى، وإضعاف إمبراطوريات عظمى، ثم ساهمت لاحقًا في إنهاك دول إسلامية كبرى مثل الدولة الأموية، ومهدت الطريق أمام صعود الدولة العباسية ☐

وقد وصف المؤرخ والفيلسوف الشهير ابن خلدون آثار الطاعون الأسود الذي اجتاح العالم في القرن الثامن الهجري وصفًا بالغ الدقة، مؤكدًا أن الوباء لم يقتصر أثره على الأرواح فقط، بل امتد ليطال العمران والاقتصاد والدولة والمجتمع، حتى بدت الأرض وكأنها تدخل مرحلة جديدة من تاريخها ☐

الطاعون ☐☐ أكثر من مجرد مرض

يعرف الطب الحديث الطاعون بأنه مرض تسببه بكتيريا "يرسينيا بيستيس" التي تنتقل عادة عبر البراغيث والقوارض، ثم تنتشر إلى الإنسان مسببة أحد أخطر الأمراض المعدية في التاريخ البشري ☐

أما في التراث الإسلامي فقد ميّز العلماء بين الوباء والطاعون، معتبرين أن كل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعونًا ☐ فالوباء يشمل الأمراض المنتشرة عمومًا، بينما يشير الطاعون إلى مرض محدد له أعراضه وخصائصه المعروفة ☐

وقد وصف الأطباء المسلمون، وعلى رأسهم ابن سينا، أعراض الطاعون بدقة لافتة بالنسبة إلى معارف عصرهم، فربطوا بين ظهور الأورام القاتلة والتسمم الدموي وتدهور وظائف الجسم، في محاولة لفهم المرض الذي حصد الملايين عبر القرون ☐

طاعون عمواس ☐☐ أول كارثة كبرى في التاريخ الإسلامي

يُعد طاعون عمواس الذي ضرب بلاد الشام سنة 18 للهجرة من أشهر الأوبئة في التاريخ الإسلامي ☐ وقد تفشى الوباء بسرعة هائلة بين السكان وجيوش المسلمين، وأدى إلى وفاة نحو 25 ألف شخص وفق بعض الروايات التاريخية ☐

وخسر المسلمون خلال تلك الجائحة عددًا من كبار الصحابة، من أبرزهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشريحيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان ☐

ورغم فداحة الخسائر، فإن الطاعون لم يوقف حركة الدولة الإسلامية الناشئة، بل دفع قادتها إلى اتخاذ إجراءات احترازية غير مسبوقة، كان من أشهرها ما قام به عمرو بن العاص عندما دعا الناس إلى التفرق في الجبال والأودية للحد من انتشار العدوى، في خطوة يراها كثير من الباحثين شكلًا مبكرًا من أشكال التباعد الاجتماعي والحجر الصحي ☐

أوبئة مهّدت لفتح فارس

لم تقتصر آثار الطواعين على إضعاف المسلمين، بل كانت أحياناً عاملاً مساعداً لهم في معاركهم الكبرى، فقد ضربت موجات وبائية متتالية الدولة الساسانية الفارسية في فترة كانت تواجه فيها الزحف الإسلامي، وأدى ذلك إلى إنهاك المدن والجيوش وتقويض القدرة على المقاومة □

ويشير عدد من المؤرخين إلى أن "طاعون يزدجرد" الذي اجتاح فارس في تلك المرحلة ساهم في إضعاف الدولة الساسانية بشكل كبير، الأمر الذي سهّل على الجيوش الإسلامية التقدم داخل الأراضي الفارسية وتحقيق انتصارات متلاحقة انتهت بسقوط الإمبراطورية الساسانية □

الدولة الأموية في مواجهة 20 طاعوناً

كانت الدولة الأموية من أكثر الدول الإسلامية تعرضاً للطواعين، إذ تشير المصادر التاريخية إلى وقوع ما يقرب من عشرين طاعوناً خلال فترة حكمها، وقد أودت هذه الأوبئة بحياة عدد كبير من كبار رجال الدولة والقادة والولاة، بينهم المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وعدد من أبناء الخلفاء والأمراء □

كما تعرضت البصرة والشام والعراق لموجات متكررة من الموت الجماعي، أدت إلى تراجع أعداد السكان بصورة غير مسبوقة، وتسببت في اضطرابات اقتصادية خطيرة نتيجة هجرة الفلاحين من الأراضي الزراعية وانخفاض الإنتاج الزراعي وتراجع الإيرادات المالية للدولة □

وفي بعض السنوات بلغ حجم الكارثة حدّاً جعل الناس يعجزون عن دفن موتاهم، فكانت البيوت تُغلق على من ماتوا فيها بعد أن عجز الأحياء عن مواراتهم الثرى □

الطاعون الجارف □ الكارثة التي حصدت 19 ألف عروس

من أشهر الأوبئة التي ضربت الدولة الأموية ما عرف باسم "الطاعون الجارف" الذي اجتاح البصرة والشام والعراق في أواخر القرن الأول الهجري، وتروي المصادر التاريخية أن الوباء كان يحصد عشرات الآلاف يومياً، حتى قيل إن عدد الوفيات بلغ سبعين ألفاً في يوم واحد خلال ذروة انتشاره □

ومن أكثر الروايات غرابة ما ذكره المؤرخون عن وفاة نحو 19 ألف عروس خلال فترة قصيرة من انتشار الوباء، وهو ما ترك أثراً نفسياً واجتماعياً كبيراً انعكس على بعض العادات والتقاليد المرتبطة بالزواج في ذلك العصر □

كما ساهم هذا الطاعون في إضعاف خصوم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، ومهد له الطريق للقضاء على ثورة الزبيريين وتوحيد الدولة تحت سلطته □

الطواعين وسقوط الدولة الأموية

يرى عدد من الباحثين أن الطواعين المتلاحقة كانت من بين الأسباب الرئيسية التي عجّلت بسقوط الدولة الأموية، فقد أدت موجات الموت المتكررة إلى استنزاف القوة البشرية والعسكرية، وأثرت على الاقتصاد بصورة حادة، كما ساهمت في تراجع أعداد الجنود وانخفاض عائدات الزراعة والضرائب □

وفي ظل هذا الضعف المتزايد، تمكن العباسيون من توسيع نفوذهم تدريجياً، مستفيدين من حالة الإنهاك التي أصابت الدولة الأموية، حتى نجحوا في إسقاطها وإقامة دولتهم عام 132 للهجرة □

العباسيون والطاعون □ هدوء مؤقت ثم عودة الكارثة

شهدت بدايات الدولة العباسية تراجعاً ملحوظاً في معدلات الطواعين مقارنة بالعصر الأموي، وهو ما استغله بعض الخلفاء العباسيين للترويج لفكرة أن قيام دولتهم كان سبباً في رفع البلاء عن المسلمين □

لكن هذا الهدوء لم يدم طويلاً، إذ عادت موجات الوباء لتضرب مناطق واسعة من العالم الإسلامي، وتسببت في كوارث بشرية هائلة □

وتحدثت بعض المصادر عن طواعين اجتاحت بخارى وفارس والعراق وأذربيجان، وخلفت أعداداً ضخمة من الضحايا، حتى إن بعض المدن شهدت عمليات دفن جماعية لعشرات الآلاف من الموتى □

الطاعون الأسود □ الكارثة الأعظم

يبقى الطاعون الأسود الذي اجتاح العالم في القرن الرابع عشر الميلادي من أعظم الكوارث الوبائية في تاريخ البشرية، فقد ضرب مصر والشام والعراق وشمال أفريقيا وأوروبا، وأدى إلى انهيار ديموغرافي واسع النطاق، حيث فرغت مدن كاملة من سكانها وتوقفت حركة التجارة والإنتاج □

ووصف ابن خلدون آثار هذا الوباء باعتبارها نقطة تحول تاريخية كبرى غيرت وجه العالم، بينما سجل ابن حجر العسقلاني وابن الوردي وغيرهما من المؤرخين مشاهد مروعة عن حجم الوفيات والانهايار الاجتماعي الذي خلفه الطاعون

أطباء المسلمين في مواجهة الوباء

لم يقف العلماء والأطباء المسلمون موقف المتفرج أمام هذه الكوارث، بل سعوا إلى فهم أسباب الأمراض وطرق انتقالها ووسائل الوقاية منها، فقد ناقش أطباء كبار مثل ابن سينا وابن النفيس أسباب انتشار الأوبئة، وربط بعضهم بينها وبين فساد الهواء وتلوث البيئة، كما قدموا وصفات علاجية وإجراءات وقائية متعددة

وفي المقابل، شهد الفكر الإسلامي نقاشات واسعة حول العدوى والحجر الصحي، وبرز علماء وفقهاء أيدوا فكرة انتقال الأمراض بالمخالطة استنادًا إلى الملاحظة والتجربة العملية

كما ظهرت ممارسات شبيهة بالحجر الصحي والتباعد الاجتماعي، إذ كان الناس يعتزلون المدن الموبوءة ويتجنبون التجمعات الكبيرة خوفًا من انتشار المرض

دروس تتكرر عبر التاريخ

تكشف قراءة تاريخ الطواعين والأوبئة في الحضارة الإسلامية أن الأوبئة لم تكن مجرد أحداث صحية عابرة، بل شكلت أحد أبرز العوامل المؤثرة في صناعة التاريخ

فقد غيرت مسارات الحروب، وأضعفت إمبراطوريات، وأسقطت دولًا، وأعدت تشكيل المدن والمجتمعات والاقتصادات

ورغم التطور العلمي الهائل الذي شهده العالم اليوم، فإن تجربة جائحة كورونا أعادت إلى الأذهان كثيرًا من المشاهد التي عاشتها البشرية في عصور الطواعين القديمة، مؤكدة أن الأوبئة ستظل جزءًا من التاريخ الإنساني، وأن المجتمعات التي تتعلم من دروس الماضي تكون أكثر قدرة على مواجهة تحديات المستقبل